القسم الثانى

شعر ابن الكيزانى ـ عرض وتحليل

الفصل الأول

وصف إجمالى

بعد أن فرغت من جمع القصائد والأشعار التى وصلت إلينا عن ابن الكيزانى . وبعد أن تحققت من صحة نسبتها إليه وذلك بحسن التثبت من صدق الرواية وصحة الإسناد ، ثم أثبتها مرتبة على حروف المعجم . بعد ذلك كله أنتقل إلى دراسة شعر ابن الكيزانى وتفهمه وتحليل أسلوبه . وقد رأيت أن يتألف هذا الباب من فصلين : الأول أتناول فيه شعر ابن الكيزانى بالوصف الإجمالى ، والثانى فى نقده وتحليله . وسأبدأ بالأول فأقول :

لقد نظرت فى كل ما صح لدى من شعر ابن الكيزانى فى دقة وإنعام فألفيته ينقسم — على سبيل الإجمال — إلى فنين رئيسين :

أسمى الأول شعر الحب والغزل الإلهى ، وأطلق على الثانى اسم فن الوعظ والإرشاد .

وإليك من قبيل الأول — على سبيل المثال — قوله :

اصرفـوا عـنى طبيبى ودعـونى وحبيبى
عـللوا قـلبى بذكراه فقـد زاد لهيـبى
طاب هتـكى فى هواه بين واش ورقيـب
لا أبالى بفـوات النفس مـا دام نصيـبى
ليس من لام وإن أطنب فيـه بمصيـب
جسدى راض بسقمى وجفـونى بنحيـبى

وأما فن الوعظ والإرشاد ، فإليك منه على سبيل الاستشهاد هذه الأبيات :

قف على الباب طالبـاً ودع الدمـع ساكبا
وتوسـل بـه إليـه من الذنب تائبـا
تلق من حسن فضله عند ذاك العجائبا
ثم خف منه أن يـرا ك على الذنب راكبـا
فهو يجزى على اليسير ويعـطى الرغائبـا
زينة العبد بالتقى فاجعل الصدق صاحبا

ولما كان وصف شعر ابن الكيزانى — من الوجهة الإجمالية — وتقسيمه إلى فنونه الرئيسة يقتضى التعرف على فنون الشعر الصوفى فى مصر فى العصور السابقة ، فقد رأيت أن أستعرض نشأة الشعر الصوفى وتطوره منذ القرن الأول حتى القرن السادس — الذى هو عصر ابن الكيزانى موضوع هذه الدراسة — فأقول :

نشأ الأدب الصوفى فى الفسطاط على شكل قصص ومواعظ وإرشادات إبان القرن الأول الهجرى ، وذلك على يدى سليم بن عتر التجيبى . وقد ظل على تلك الحال بقية القرن الأول وثلاثة أرباع القرن الثانى إذ لم نجد فى كل ما رجعنا إليه من كتب التاريخ والتراجم والأدب قصيدة أو أبياتاً ولو قليلة لرجل من أهل النسك والعبادة والتصوف والزهادة . أما فى الربع الأخير من القرن الثانى وفى النصف الأول من الثالث فإننا وجدنا الشعر الصوفى يظهر بجلاء وفى كثرة لافتة عند شيبان الراعى وذى النون المصرى ومحمد بن إدريس الشافعى والربيع بن سليمان بن عبد الجبار .

وإليك على سبيل المثال هذه الطائفة من أشعار الشافعى والربيع وذى النون . فمن شعر ذى النون[1] :

يا ذا الذى أنس الفؤاد بذكـره أنت الذى ما إن سواه أريـد
يا منيتى دون الأنام وبغيـتى يا من له كل الأنام عبيـد
تفنى الليـالى والزمـان بأسره وهواك غض فى الفؤاد جديد

(١) شعبان الحرنفش — الروضة الفائقة — طبع القاهرة ص ١٦٠ .

ومن شعر الشافعي رضى الله عنه [١] :

إن الذى رزق اليسار ولم يصب ... مجداً ولا أجراً لغير موفقِ
فالجدُّ يدنى كل أمر شاسع ... والجَدُّ يفتح كل باب مغلقِ
وإذا سمعت بأن مجدوداً حوى ... عوداً فأثمر فى يديه فحققِ
وإذا سمعت بأن محروماً أتى ... ماء ليشربه فغاض فصدقِ
وأحق خلق الله بالهم امرؤ ... ذو همَّة يبلى بعيش ضيقِ
ومن الدليل على القضاء وكونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمقِ

ومن شعر الربيع بن سليمان بن عبد الجبار المتوفى سنة ٢٧٠ هـ[٢] :

صبراً جميلا ما أسرع الفرجا ... من صدق الله فى الأمور نجا
من خشى الله لم ينله أذى ... ومن رجا الله كان حيث رجا

ومما أوردناه من شعر الشافعي وذى النون وغيرهما يتضح لنا أن شعر الصوفية النظريين والعمليين — أو بعبارة أخرى أقول : إن شعر المتصوفين وزهاد الفقهاء — قد ظهر فى مصر إبان الربع الأخير من القرن الثانى الهجرى ثم كثر وانتشر وتعدد قائلوه فى أوائل القرن الثالث . وقد تأملت أكثر ما وصل إلىّ من شعر الشافعي وذى النون فوجدته فى جملته سهل العبارة واضح المعنى لا عمق فيه ولا تعقيد ولا غموض ولا إبهام . أما فى القرن الرابع الهجرى فقد تعقدت أساليبه وصعبت عباراته وعمقت معانيه وذلك كالذى وجدناه عند منصور بن إسماعيل — من زهاد الفقهاء — وأبى على الروزبارى — من الصوفية النظريين .

وإليك من شعر الأول على سبيل المثال قوله :

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا ... للموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمان لقائه بلقائه ... وفراق كل مصاحب لا ينصف

---

(١) انظر تاج الدين السبكى — طبقات الشافعية الكبرى — جـ ١ ص ١٥٩ و ١٦٠ .
(٢) المرجع السابق . جـ ٢ .

ومن شعر الثانى — على سبيل المثال أيضاً — قوله :

بك كتمان وجده بك عنـــه لك منه وعنه مالك منه
من إذا لاح لائـــح مستشرفٌ هام وجداً عليك إن لم تكنه
وإذا قال لا أقـــول ببين بان عنـــه فبان إن لم تبنـــه
يا فتى الحب يا فتى الحق سرى عنك مستودع لديك فضه

فالروزبارى فى شعره هذا — كما ترى — يتلاعب بالألفاظ ، ويلتوى فى التعبير مع إخفاء المعنى ، وإبهام الغرض ، حتى لا يتسنى لغير المتصونة أو أولى الدراية بعلم الباطن ، فهم القصد ، ومعرفة المراد ، وبالجملة فإن شعر التصوف المصرى فى القرن الرابع الهجرى ، قد تعقدت أساليبه وبعدت أغراضه ودقة معانيه الأمر الذى يحملنا على الاعتقاد بأن الصوفية فى مصر قد تأثرت أثناء القرن الرابع الهجرى إلى حد كبير بمختلف الأفكار الفلسفية والنظريات الكلامية والأساليب المنطقية .

أما القرن الخامس الهجرى فإننا لم نجد فيه شيئاً من الشعر الصوفى لأن المتصوفين المصريين قد هجروا مصر إلى الأقطار العربية والإسلامية الأخرى ولم يبق فى ربوع مصر أحد من رجال التصوف السنى سوى رجلين ماتا فى أخريات النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ذكرهما جلال الدين السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » ضمن من ذكرهم من الزهاد والنساك والمتصونين الذين هم كانوا يعيشون فى مصر . ولم يذكر السيوطى لأى من الرجلين شعراً على الإطلاق كما أنه لم يذكر من المتصوفين والناسكين سواهم فى هذا القرن .

وقد سبق أن فصلنا القول فى العوامل والأسباب التى جعلت رجال السنة من المتصوفين والفقهاء الزاهدين يهجرون مصر طيلة القرن الخامس الهجرى .

أما فى القرن السادس الهجرى فإن الشعر الصوفى قد عاود نشاطه فى مصر من جديد وذلك بفضل أبى عبد الله محمد بن إبراهيم المشهور بابن الكيزانى الذى هو مدار البحث والدراسة فى هذا الكتاب وقد ذكر العماد الأصفهانى وابن سعيد المغربى وسبط بن الجوزى وابن خلكان وغيرهم أنه كان لابن الكيزانى ديوان متداول بين الناس ، وقد حاولت العثور على ذلك الديوان فلم أعثر عليه ، لكنى وجدت

له شعراً غير قليل ، رواه له العماد وغيره ، وهو فى جملته وتفصيله لا يخرج عما وجدناه من قبل عند ذى النون والشافعى وأبى على الروزبارى وإليك من شعره على سبيل التمثيل والاستشهاد قوله[1] :

جهد عينى أن لا تذوق هجوعاً ... وجفونى أن لا تكف دموعا
ولسانى أن لا يزال مقرًّا ... أننى لست للعهود مضيعا
وفؤادى أن لا يلم به الصبر ... وسقمى أن لا يروم نزوعا
ولقد أودع الغرام بقلبى ... زفرات أضحى بها مصدوعا
وإذ أطنب العذول فقد ... عاهدت سمعى أن لا يكون سميعا
وحرام على التلهف ألا يبرح ... أو يحرق الحشا والضلوعا
وبعيد أن يجمع الله شملى ... المسرات أو نعود جميعا

وقوله :

إن كنت لابد المخالط للورى ... فاصبر فإن من الحجا أن تصبرا
وإذا لقوك بمنكر من فعلهم ... فتلق بالمعروف ذاك المنكرا
كالأرض ملقى فوقها أقذارها ... أبداً وتنبت ما يرق المنظرا

فالكيزانى فى هذه الأشعار ، كما ترى ، عاشق لله ، هائم فى حب مولاه من جهة ، ثم هو واعظ زاهد من جهة أخرى ، فهذان الغرضان أعنى الوعظ والإرشاد والحب الإلهى كانا هدف الشعر الصوفى ومداره فى مصر منذ أوائل القرن الثالث حتى أخريات القرن السادس ، فالشافعى وذو النون فى القرن الثالث الهجرى وأبو على الروزبارى ومنصور بن إسماعيل فى القرن الرابع ، فكل من هؤلاء وغيرهم قد أنشأ القريض فى الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد من جهة ، وفى المحبة الإلهية والعشق الربانى من جهة أخرى .

وإن كان قد غلب على البعض التصوف ، وعلى الآخرين الاشتغال بالفقه فمثل الفريق الأول فى القرن الثالث ذو النون وفى القرن الرابع الروزبارى ، ومثل

---

(١) العماد الأصفهانى — خريدة القصر وجريدة العصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ م جـ ٢ ص ٢٧ .

الفريق الثانى فى القرن الثالث الشافعى وفى الرابع منصور بن إسماعيل ، على ما سبق أن بيناه فى صدر هذا الفصل . والقصد من هذا أن أقول إن شعر الصوفية النظريين وزهاد الفقهاء كان فى جملته مختلطاً بعضه ببعض من حيث المعانى والأغراض متشابهاً إلى حد كبير فى الأساليب وطرق التعبير وإن كان قد غلب على شعر الذين غلب عليهم التصوف طابع الحب والغزل الإلهى وعلى شعر الذين غلب عليهم الاشتغال بالفقه وعلوم الشريعة طابع الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد . وفى شعر ابن الكيزانى المتوفى فى العقد الثانى من النصف الثانى من القرن السادس يتجلى المزج بين طابع الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد من ناحية ، وطابع الغزل والحب الإلهى من ناحية أخرى ، الأمر الذى يتيح لنا القول ، بأن تمييز شعر زهاد الفقهاء أو المتصوفة العمليين من شعر طائفة الصوفية النظريين لم يظهر بشكل بين وعلى صورة واضحة إلا فى القرن السابع الهجرى على ما فصلناه فى كتابنا الذى نشرته دار المعارف تحت عنوان « الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى » وقصارى القول فى هذا المقام أن يقال إن شعر ابن الكيزانى ينقسم فى جملته وتفصيله من حيث المعانى والمضامين ومن جهة الأساليب وطرق التعبير إلى قسمين رئيسين — هما على ما سبق أن قلته — شعر الغزل والحب الإلهى وشعر الوعظ والإرشاد .

هذا على أن كثيراً من قصائد ابن الكيزانى قد جمعت الواحدة منها فى عقدها بين الفنين . إذ أن ابن الكيزانى كان يهدف من نظم قصيده فى أكثر الأحيان إلى غرضين اثنين : الأول شرحه مواجيده ومشاعره والتعبير عن عواطفه وإحساساته وتصوير ما يعترى قلبه فى حب ربه من شدة الشوق ولعج الهوى وحر الغرام . والثانى هو وعظ الناس وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة من ناحية وإلى ما فيه صلاح الجماعات البشرية والمحافظة على تعاليم الدين من ناحية أخرى .

الفصل الثانى

شعر ابن الكيزانى ـ نقد وتحليل

تناولنا فى الفصل السابق فنون شعر ابن الكيزانى وتياراته على سبيل الوصف الإجمالى . وفى هذا الفصل نتناولها إن شاء الله بالدرس الفنى التحليلى . على أننا سنلتزم هنا كذلك ما جرينا عليه هناك من تقسيم شعر ابن الكيزانى من الوجهة الفنية والصبغة الأدبية إلى قسمين رئيسين مختلفين من حيث الموضوعات أو المضامين من جهة ومن حيث الأساليب ونسق التعبير من جهة أخرى . وذلك مع عدم الاختلاف فى التسمية وأساس التقسيم ، ولما كنا قد اتخذنا فى الفصل السابق أسلوب المؤرخ الأدبى فيما عرضنا له هناك من تبيان أنواع شعر ابن الكيزانى على الوجه الإجمالى ثم تتبع خطوات تلك الفنون وما مرت به من أطوار منذ نشأتها حتى الصورة التى وجدناه عليها لدى ابن الكيزانى فى القرن السادس الهجرى ـ أو بعبارة أخرى ـ أقول :

لما كنا قد استعملنا هناك ذلك الأسلوب الذى هو إلى البحث العلمى أقرب منه إلى النقد الأدبى ، فقد رأينا أن نسلك فيه طريقة البحث التنازلى وهى التى تبدأ بالكليات أو الأجناس العليا وتنتهى إلى الجزئيات أو الأنواع السفلى .

أما هنا فإننا نصطنع أسلوب الناقد الأدبى بالمعنى الأخص أو المحلل الفنى بأدق معناه ، لذلك فإننا آثرنا استخدام طريقة البحث التصاعدية وهى التى تبدأ بالجزئيات وتنتهى إلى الكليات ، أعنى أننا سوف نستعرض النص الأدبى ثم أبذل الجهد فى تبيان العوامل والمؤثرات التى أدت إلى حالة التوليد الأدبى ، أو بعبارة أخرى ، أقول التى لابست عملية الخلق والإبداع ، وأعنى بالخلق والإبداع هنا تلك المرحلة التى يمر بها النتاج الأدبى أو العمل الفنى فى وجوده الذهنى قبل ظهوره إلى الخارج أو الوجود الحسى بواسطة التعبير الأدبى ، وتلك المرحلة أو ذلك الطور هو عين ما يعبر عنه فى اللغة العربية بكلمة جاش أو حاك وذلك فى مثل قول القائل :

« هذا معنى قد جاش فى الصدر أو جاش به الصدر . ودار فى الخلد أو حاك فى النفس » .

وبعد هذا نتفهم معنى النص ونبين مغزاه ، ثم نتبين ما فى ذلك النص الذى نستعرضه من صدق التعبير الأدبى وروعة التصوير الفنى ، وبعد ذلك كله نبين نوع التأثير الفنى المقصود على مشاعر السامعين ووجدانات القارئين .

ذكر النماذج أو استعراض النصوص

وسنستعرض نصًّا من كل فن من ذينك الفنين اللذين أجملنا ذكرهما فى الفصل السابق وهما فن الوعظ والإرشاد وشعر الغزل والحب الإلهى . وسأبدأ باستعراض نص من النصوص التى وصلت إلينا عن ابن الكيزانى فى فن الوعظ والإرشاد ثم أتبعه بنص من شعر الغزل والحب الإلهى .

النموذج الأول :

« نص من فن الوعظ والإرشاد » :

« قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المشهور بابن الكيزانى » :

قف على الباب طالبا ودع الدمع ساكبا
وتوسل به إليه من الذنب تائبا
تلق من حسن فضله عنـــد ذاك العجائبا
ثم خف منه أن يرا ك على الذنب راكبا
فهو يجزى على اليسير ويعطى الرغائبا
زينة العبد بالتقى فاجعل الصدق صاحبا

ما حول النص أو العوامل والمؤثرات التى لابست عملية الخلق أو التوليد لهذا النص الأدبى :

أعتقد أن العوامل والمؤثرات التى أدت إلى صدور هذا النص عن وجدان ابن الكيزانى كثيرة بعضها نستطيع تبينه والبعض الآخر نجهله ، أقول نجهله لأننا

لم نكن نعيش فى عصره ، ولا نحن ممن خالطوه حتى نستطيع الوقوف على جميع الأسباب المباشرة وغير المباشرة لوجود ذلك النص .

على أننى لم أجد أحداً ذكر شيئاً يمكن اعتباره سبباً مباشراً أو غير مباشر لنظم هذه المقطوعة ، وأيًّا ما كان فإنى أستطيع إجمال العوامل والمؤثرات التى يحتمل أن تكون قد أدت إلى فيض قريحة الشاعر بهذه الصورة الفنية أو تلك المعانى الوجدانية التى أودعها ابن الكيزانى أبياته تلك فيما يلى :

أولا : كان الناس قد شغلتهم الدنيا أيام ابن الكيزانى عن الدين وذلك بسبب كثرة الحروب الطاحنة التى كانت تدور فى مصر والشام بين المسلمين بعضهم بعضاً من ناحية وبينهم وبين الصليبيين من ناحية أخرى لأن كثرة الحروب تسبب غلاء المعيشة وارتفاع أسعار الحاجيات ؛ الأمر الذى يجعل الإنسان يكثر من السعى فى تحصيل أسباب العيش .

ثانياً : كثرة الأوبئة الفتاكة ، والتى كانت تختترم الرجال وتعتبط الشباب فى صورة فظيعة مؤلمة ، على حين كانت الدولة الإسلامية فى مصر والشام أحوج ما تكون إلى الرجال للذب عن الإسلام وأهله ، الأمر الذى أدى إلى وجود حالة من الاضطراب النفسى والتزعزع العقيدى فى نفوس كثير من المسلمين وبخاصة من كانوا من قبل على غير دين الإسلام ؛

ثالثاً : تفشى المجون والاستهتار والتحلل الخلقى فى مختلف المدن والبلدان بمصر والشام ، ولا غرو فقد شربت الخمر وأتيت الغلمان وأكثروا من ارتكاب المحرمات . فلكل هذه الأسباب وغيرها ، أحس ابن الكيزانى فى أعماق نفسه بالمسئولية الدينية والواجب الخلقى ، وانفعلت بذلك عاطفته الإسلامية وأخذ ضميره يأمره بأن يعمل جاهداً على وعظ الناس وإرشادهم ودعوتهم إلى التوكل على الله والإخلاد إليه وأن يزهدهم فى الدنيا ولذاتها وما فيها من منافع قليلة زائلة . وقد استجاب بطبيعة الحال ابن الكيزانى إلى ضميره ففاضت قريحته بتلك المواعظ والإرشادات التى فى هاتيك الأبيات :

شرح النص أو تبيان المضامين :

قف على الباب طالبا ودع الدمع ساكبـــا

فالشاعر فى البيت الأول من هذه المقطوعة ينصح للإنسان أن يترك مسألة البشر وأن يحفظ ماء وجهه من التردد على أبواب السلاطين والتذلل بين يدى الأمراء وأصحاب الجاه والثراء بغية الاستجداء وأن يتجه بكليته وبكل عواطفه وجماع قلبه إلى ربه عز وجل يستمطر رحمته ويستدر عطفه ويتضرع إليه أن يوسع عليه رزقه وأن يقيه نائبات الزمان وينقذه من طغيان الحدثان ، ثم إن الشاعر يربأ بكرامة الإنسان أن يذرف عبرة من عينيه بين يدى أحد من الخلق طلباً لعطفه أو التماس بعض النوال منه وأن يكون انسكاب دمعه لربه فقط فهو وحده الذى يستوجب من كل خلقه التذلل والخضوع وكأنى بابن الكيزانى قد تمثل حين قال بيته هذا ذينك البيتين :

لا تسألن بُنَىّ آدم حاجة وسَلِ الذى أبوابه لا تحجب
فالله يغضب إن تركت سؤاله وبُنَىُّ آدم حين يسأل يغضب

وفى البيت الثانى « وتوسل به إليه ... من الذنب تائبا » يحض ابن الكيزانى كل إنسان على التوبة من الذنوب وطلب الغفران من ارتكاب الآثام وأن يتوسل فى ذلك كله إلى الله بذاته هو سبحانه وتعالى لا بشىء سواه ، ومعنى هذا أن ابن الكيزانى لا يجيز التوسل إلى الله بأى من الخلائق مهما كانت قيمته أو منزلته فإن المخلوق لا يقدر على شىء لنفسه هو ، فما بالك بنفعه أو ضره للآخرين .

وكأنى بابن الكيزانى يتمثل فى هذا المعنى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لا يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك » .

وفى البيت الثالث « تلق من حسن فضله . . . عند ذاك العجائبا » يقول ابن الكيزانى تأكد أيها الإنسان بأنك إذا لجأت إلى ربك وانصرفت بقلبك عن كل ما عداه ولم ترج الخير من أحد سواه فإنك سوف تلقى من حسن فضله عند

ذاك العجائبا ، يعنى أن الخير كله سوف يأتيك ، وأن الشر كله سوف يجافيك ، وأنه سوف يتحقق لك من الأمانى والآمال ما كنت تظنه من قبل داخلا فى دائرة المحال .

وفى البيت الرابع « ثم خف أن يراك . . . على الذنب راكبا » . ينهى ابن الكيزانى عن ارتكاب الذنوب وفعل الآثام ويحذر العصاة والمذنبين من عذاب أليم ثم هو يبكت مجترح السيئات والذين هم يأتون المنكرات بأسلوب موغل فى السخرية مفعم بالتأنيب إذ يقول فى تهكم لاذع ولوم شديد . . . يا من يقترف الآثام ويأتى الموبقات فى السر أو الخفاء ظنًّا أنه لا يعلم به أحد وأنه لن تراه عين إنسان. خف من الله العزيز الجبار الذى لا يغفل فى ليل أو فى نهار والذى لا تخفى عن علمه خافية ولا تغيب عن عينه ذرة فى الأرض ولا فى السماء؛ بل إنه يبصر جميع الكائنات ويحيط بكل الموجودات ويعلم حقائق جميع الماديات والمعنويات ومصداق هذا كله قوله تعالى فى كتابه العزيز : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وفى البيت الخامس « فهو يجزى على اليسير . . . ويعطى الرغائبا » يبشر الشاعر العاملين من المؤمنين الصادقين أن لهم عند ربهم حسن المثوبة وخير الجزاء ، إذ أن الله سبحانه وتعالى يجزى بالكثير على فعل القليل وأنه يحقق لعباده المخلصين جميع المآرب وكل الآمال وإن بدت أمام ناظريهم صعبة التحقق بعيدة المنال .

وفى البيت السادس « زينة العبد بالتقى . . . فاجعل الصدق صاحبا » . يجعل ابن الكيزانى جمال المرء وزينة الإنسان منوطة بالتقى والورع والزهد فى الدنيا والإقبال على الآخرة والصدق فى العبادة والإخلاص فى الطاعة ، ولا عجب فإن الإنسان إذا ما ترك الدنيا واتجه إلى الله أضحى من المقربين إلى رب العالمين ، والقرب دون شك يضفى على العبد هالة من الجمال والجلال وكثيراً من الحسن المادى والرونق المعنوى وذلك بفضل ما يغمره به ربه فى حالة دنوه إليه من الأسرار والأنوار .

بيان ما فى النص من الخصائص البلاغية وبديع التصوير وروعة التعبير

لقد بدأ الشاعر هذه المقطوعة بأسلوب الأمر ، وهو أنسب الأساليب إلى الموضوع الذى أنشئت فيه المقطوعة ، إذ مقصود الشاعر من مقطوعته هذه هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

على أنه ليس أمراً بمعناه الحقيقى ، وإنما هو وعظ ونصح وإرشاد جاء على صيغة الأمر ، لإشعار المخاطبين بأن الأمر جد خطير . وفى البيت الثانى يعود الشاعر إلى أسلوب الأمر الذى اصطنعه فى البيت الأول مع تضمينه إياه خصوصية بلاغية أخرى ، وأعنى بها ما يعرف فى علم المعانى بأسلوب القصر ، وهو يتمثل هنا فى تقديم الجار والمجرور على متعلقه ، وأعنى بالجار والمجرور هنا قوله من الذنب وبالمتعلق قوله تائباً . إذ أصل الكلام هكذا . . توسل به إليه تائباً من الذنب ، إذ من المقرر فى علم المعانى أن تقديم الجار والمجرور على متعلقه يفيد الحصر ثم إن كلا من البيت الأول والبيت الثانى يشتمل على خصوصية بلاغية ثالثة وأعنى بها أسلوب الإنشاء .

وفى البيت الثالث ينتقل الشاعر من الأسلوب الإنشائى إلى الأسلوب الخبرى وتلك خصوصية بلاغية قصد بها الشاعر تقرير المعنى وإخراجه مخرج الأمر المحقق .

وفى البيت الرابع يعود الشاعر إلى اصطناع أسلوب الإنشاء مبالغة منه فى التخويف والتحذير لأن الإنشاء يشتمل على معنى المفاجأة وفى المفاجأة ما فيها من التأثير على العواطف والوجدانات .

وفى البيت الخامس يستعمل الشاعر أسلوب الإخبار لأنه يناسب التقرير ويفيد بالتالى حصول المعنى وتحقيق المراد .

وفى البيت السادس يتابع الشاعر طريقة الإخبار لنفس الغرض وذات القصد الذى أسلفناه . وقد زخرت هذه المقطوعة أيضاً بصور البيان ومختلف وجوه تحسين الكلام ، أعنى أنها قد اشتملت على مجموعة من الخصائص الفنية والمزايا الأدبية المنوطة باللفظ والمضمون والتى يعنى ببعضها علم المعانى كأسلوب

الخبر والإنشاء والفصل والوصل والقصر والتقديم والتأخير ، ويعرف البعض الآخر منها بواسطة فنى البيان والبديع . فمن صور البديع ما اشتملت عليه المقطوعة من التجريد وهو أن يجرد الشاعر من نفسه شخصاً آخر يوجه إليه الخطاب وكالطباق الذى يتمثل فى الجمع بين المعانى المتقابلة . إما على وجه التوافق أو على سبيل التضاد . ومما يعد من صور البيان صراحة وفى غير ما لبس أو التواء « ثم خف منه أن يراك على الذنب راكبا » . فهو كما ترى قد أخرج فى هذا البيت الأمر المعنوى فى ثوب الأمر الحسى ذى التحقق الخارجى والذى يمكن أن يشاهد بالعيان .

إذ ادعى شاعرنا أن الذنب وهو أمر معنوى — يشبه الحيوان كالفرس وغيرها مما يتأتى أن يركبه الإنسان . وفى ذلك ما فيه من التخيل والتشخيص الذى يعده النقاد من أسمى صور البيان وأروع أساليب التعبير .

نوع التأثير المقصود من هذه المقطوعة على مشاعر المخاطبين

بناء على ما تقدم من تبيان العوامل والمؤثرات التى لابست عملية الخلق ، أو قل حالة التوليد لمعانى مقطوعة ابن الكيزانى المذكورة وما قدمناه كذلك من شرح معانيها ثم تبيان ما فيها من بديع التصوير وروعة التعبير ، بناء على ذلك كله أستطيع أن أقول إن ابن الكيزانى كان يهدف من مقطوعته تلك إلى إثارة العواطف الدينية وتقوية الإيمان فى نفوس المسلمين وبالتالى يجعلهم يقلعون عن ضروب اللهو والعبث ، ويمسكون عن المجون والاستهتار ، ثم يقبلون على الله بتأدية الفرائض والواجبات وفعل الخير واجتناب الشر .

النص الثانى :

مقطوعة من شعر الغزل والحب الإلهى :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
عللوا قلبى بذكراه فقد زاد لهيبى
طاب هتكى فى هواه بين واش ورقيب

لا أبالى بفوات النفس ما دام نصيبى
ليس من لام وإن أطنب فيه بمصيب
جسدى راض بسقمى وجفونى بنحيبى

ما حول النص أو العوامل والمؤثرات التى أدت إلى فيض قريحة ابن الكيزانى بهذه الأبيات :

لم يذكر لنا أحد من المؤرخين أو المتصوفين الذين كتبوا عن ابن الكيزانى وترجموا له وأرخوه ، لم يذكر لنا أحد من أولئك ولا هؤلاء الظروف التى اقتضت نظم هذه المقطوعة ولا شيئاً من الملابسات التى اكتنفتها وقت أن جاشت بها نفس ابن الكيزانى وانفعلت بها عواطفه . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نتخيل العوامل ونقدر الأسباب على وجه التخمين أو الافتراض ، فنقول كان المريدون والطلاب والسالكون قد أحسوا من شيخهم ما هو عليه من الوجد والهيمان فأخذوا يروحون عنه بعض ما به من شدة الشوق وحرقة الوجد بمختلف ضروب الترفيه وشتى عبارات المواساة ، فتأثرت من ذلك نفسه وانفعل حسه ونبض شعوره ففاضت عواطفه بتلك المعانى وهاتيك الصور التى أودعها أبيات هذه المقطوعة .

شرح معانى الأبيات

يقول ابن الكيزانى فى البيت الأول من هذه المقطوعة « اصرفوا عنى طبيبى . . . ودعونى وحبيبى » .

لا أريد أن تنصحونى أيها الأصدقاء ومعشر المريدين بالإقلاع عما أنا فيه من الحب والهيمان ، ولا أريد من ذوى الحصافة وسداد فى الرأى أن يصفوا لى الدواء . فإن لذتى فى دنفى وسعادتى فى اشتياقى إلى قرب الحبيب . ثم يقول لمن أسدى له النصح — فى صراحة — انصرف عنى أيها الطبيب المداوى ودعنى وحبيبى أعانى فى سبيله ما أعانى .

وفى البيت الثانى « عللوا قلبى بذكراه . . . فقد زاد لهيبى » يتحدث الشاعر عن تجربته التى مرت به فى حب ربه ويطلب من عاذليه أن يداووه بنفس مصدر

الداء . وذلك بأن يذكروا بين يديه أو يلقوا فى سمعه باسم حبيبه أو يذكروه له ببعض صفاته أو شيء من أحواله معه أو معاملته إياه — إن صح هذا التعبير — من الوصل والهجر أو الإقبال والإدبار . وكأنى بابن الكيزانى قد تأثر — فى قوله عللوا قلبى بذكراه — قول أبى نواس : « وداونى بالتى كانت هى الداء » .

وفى البيت الثالث « طاب هتكى فى هواه . . . بين واش ورقيب » يقول الشاعر إنه يستطيب تهتكه فى هوى حبيبه بين عاذليه وأعنى بهما الواشى والرقيب .

وفى هذا المعنى ما فيه من تصوير التجربة الروحية والانفعالات النفسية التى مر بها الشيخ فى سبيل حبه مولاه .

وفى البيت الرابع « لا أبالى بفوات النفس . . . ما دام نصيبى . . » يقول ابن الكيزانى : لا يهمنى أى شيء أفقده فى سبيل حبيبى وإن كان أثمن ما يملك وأعز شيء فى الحياة وأعنى بذلك النفس أو الروح .

فابن الكيزانى إذن يستهين بكل شيء فى سبيل ظفره من ربه بالرضا والقبول ، وهذا هو عين المراد من قوله « لا أبالى بفوات النفس . . . ما دام نصيبى » .

يعنى أنه ما دام الله سبحانه وتعالى يشمله برضوانه ويقف إلى جانبه فى الملمات وعند النازلات . فإنه ما دام حاله معه كذلك — لا يأسف ولا يندم على شيء فاته فى هذه الدار حتى ولو كان ذلك هو نفسه أو روحه .

وفى البيت الخامس « ليس من لام وإن أطنب ... فيه بمصيب » . يقول ابن الكيزانى : قد أخطأ اللائمون وجانبهم الصواب وحادوا عن الحق وانحرفوا عن الجادة حينما أكثروا من لومه على ما به من الوجد والهيام .

وفى البيت السادس « جسدى راض بسقمى . . . وجفونى بنحيبى » يقول شاعرنا : إنه بكل ما فيه من أعضاء جسده راض بكل ما أصابه من سقم أضنى جسده وما اعترى قلبه من شجن أذرف دمعه ذلك لأنه قد ترفع فى حبه عن كل ما فى هذه الدنيا من متع ولذات وأصبح بالتالى لا يشعر فى جسده وروحه بشيء من آلام الدنيا ومضار الحياة . فإنما يبدو لأهل الظاهر من ألم أو شجن ليس فى الحقيقة وواقع الأمر سوى سعادة روحية تغمر قلبه وتفعم نفسه وذلك بسبب ما يستشعره فى أعماق قلبه من رضا مولاه .

الخصائص البلاغية والصور التعبيرية التى اشتملت عليها هذه الأبيات

استخدم الشاعر فى البيت الأول – لتصوير حسه ووجدانه – أسلوب الإنشاء . وذلك فى كل من الصدر والعجز . إذ طلب فى صدر البيت من طلابه ومريديه أن يصرفوا عنه الطبيب المداوى ، وفى العجز طلب منهم أن يدعوه وشأنه كى لا يكدروا عليه صفوه بلوم أو نصيحة . إذ يرى أن سعادة نفسه فى اختلائه بحبيبه .

وفى البيت الثانى يصطنع الشاعر أيضاً أسلوب الإنشاء . وهو هنا خصوصية بلاغية لاقتضاء المقام إياه . هذا بالنسبة للصدر أما العجز فقد جاء على أسلوب الإخبار وهو كذلك خصوصية اقتضاه المقام لأن حال المخاطبين يتطلب من الشاعر الشرح والتعليل وذكر العوامل والأسباب التى جعلته يطلب إليهم أن يعللوا قلبه بذكر حبيبه . والأسباب أو العوامل منوطة هنا بعواطف الشاعر وأحاسيسه وما انفعلت به وجداناته وما اعترى قلبه فى حبه ربه من لعج الهوى وألم الجوى وشدة الوجد ووفرة الهيام وفى البيت الثالث يستخدم الشاعر فى تصوير عواطفه الأسلوب الخبرى أيضاً ثم إن البيت الثالث يشتمل – فوق خصوصية الإخبار – على صورة بيانية رائعة . إذ عبر عن تبذله فى هوى مولاه بالتهتك .

والتهتك لفظ يراد منه – حقيقة إذا أطلق – المرأة التى تكشف عن محاسنها وتبدى للناس مفاتنها فلا تستر ما ينبغى ستره عن الأعين من أعضاء الجسد .

وفى البيت الرابع يعود الشاعر إلى اصطناع الإخبار وهو هنا خصوصية قد اقتضاها المقام بصورة أوضح من كل ما قد مضى إذ أن الشاعر فى هذا البيت يريد أن يكشف للناس عن عدم اكتراثه بالوصائب والكوارث والآلام التى تنزل به من جراء الحب والهيام .

وهذا معنى لا يمكن أن يؤدى بأى من أساليب الإنشاء . لذلك رأينا الشاعر يصطنع فى هذا البيت الأسلوب الخبرى برغم أنه فى وسعه أن يستعمل مكانه أسلوب الإنشاء ، إذ كان يستطيع أن يقول (وهل أبالى) بدلا من قوله لا أبالى ، ولو أنه وضع

(هل) مكان (لا) لأصبحت الجملة جملة إنشائية ولكنه كما قلنا قد اختار الإخبار . وما البلاغة فى أرقى مراتبها سوى حسن اختيار الأساليب .

وفى البيت الخامس يفضل الشاعر كذلك أيضاً الأسلوب الخبرى على أسلوب الإنشاء لأن الإخبار يفيد التحقق والتقرير وأما الإنشاء فإنه لا يشتمل على نسبة كلامية تحتمل الصدق والكذب والنفى والإثبات . لأن الإنشاء طلب والطلب يتعلق بأمور ليس لها صفة التحقق أو الحصول إذ أنه لو كان المطلوب حاصلا أو متحققاً لما جاز فى العقل أن يتناوله الكلام بصيغة الطلب وأسلوب الإنشاء ، ثم إن هذا البيت يشتمل كذلك على خصوصيات بلاغية أخرى منها التقديم والتأخير ومنها التوكيد . إذ اشتمل البيت على توكيدين الأول الجملة الاسمية والثانى زيادة الباء فى لفظ الخبر وهو كلمة بمصيب .

وفى البيت السادس والأخير يستخدم الشاعر فى تصوير عواطفه وإبراز أحاسيسه الاستعارة المكنية حسب اصطلاح النقاد الأقدمين أو التشخيص -- حسب اصطلاح المحدثين .

وتتجلى الاستعارة المكنية أو قل التشخيص فى قوله : « جسدى راض بسقمى » وفى قوله : « وجفونى بنحيبى » فقد شبه الشاعر جسده بإنسان عاقل ثم حذف المشبه به وأبقى المشبه وهو الجسد ورمز إلى المشبه به بشىء من لوازمه وهو هنا كلمة راض . إذ أن الرضا لا يتأتى إلا من كائن عاقل أما الجسد فإنه فى ذاته غير عاقل . وحسه وشعوره بالأشياء إنما يحصل له بفضل النفس التى تحل فيه وكذلك يقال فى الجفون . أن الجفون فى ذاتها لا يتأتى وصفها بالرضا أو عدمه وإنما جاز للشاعر أن يقول إنها راضية بالبكاء والنحيب بعد أن تخيل أنها فرد من أفراد بنى الإنسان .

وجملة القول فى هذه المقطوعة أنها قد اشتملت فى كل بيت من أبياتها على خصوصيات بلاغية ومحسنات بدعية ومختلف صور البيان .

نوع التأثير المقصود
أو الغاية الفنية للشاعر من هذه المقطوعات الشاعرية

أعتقد أن الشاعر أراد بهذه المقطوعة أن يصقل نفوس المريدين ويهذبها بتقوية عاطفة الحب الإلهى ، وتنمية الوجدان الروحى وبالتالى يوطدها على تحمل عصف الوجد ولعج الحب والتمرس على تباريح الهوى .

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لشعر ابن الكيزانى

بعد أن تناولت شعر ابن الكيزانى بالوصف الإجمالى والنقد التحليلى ، أنتقل إلى إجمال خصائصه الفنية ، ومميزاته الأدبية فأقول :

لقد تأملت كل ما وقع إلىّ من شعر ابن الكيزانى وفحصت جميع أبياته وكل قصائده ، فوجدته قد انفرد فى أكثر شعره وجل قصيده بالخصائص الفنية التالية :

أولا : سهولة اللفظ ، فإننا لم نجد فى شعره كلمة صعبة ولا لفظة غريبة ، بل كل ألفاظه سهلة وكلماته مألوفة الاستعمال .

ثانياً : وضوح القصد وظهور المراد ، فإن كل من يقرأ شعر ابن الكيزانى يدرك غرضه ويفهم قصده فى غير ما جهد أو عناء .

ثالثاً : فصاحة الكلمات ، فلم نجد فى أبيات ابن الكيزانى كلمة غريبة أو متنافرة الحروف ولا بعيدة المعنى ، إذ أن بعد المعنى والتنافر فى الحروف والغرابة هى التى تكسب اللفظ الوحشية وتفقده الفصاحة وبالتالى تصبح الكلمة رديئة .

رابعاً : غزارة المعنى ، وعمق المضمون ، مع الخلو من الغموض والسلامة من الإبهام .

خامساً : استقامة التراكيب واستواء الأساليب .

سادساً : الحرص على مراعاة مقتضى الحال ، وتوخى الأساليب التى تناسب المعانى .

سابعاً : الاستعارة والتشخيص والكلف بالتشبيهات والمجازات .

ثامناً : اصطناع المحسنات كالجناس والتورية وحسن التعليل وكالطباق والتجريد .

تاسعاً : كثرة السرقات للمعانى ، فإن ابن الكيزانى كان يكثر من نظم القريض فيما يستحسنه من المعانى التى طرقها من سبقه من الشعراء سواء أكانوا متصوفين أم من أصحاب التشبيب والغزل .

هذا من حيث مساوقة شعر ابن الكيزانى لقواعد وقوانين نقد الأدب العربى القديم . أما بالنسبة لمقاييس النقد الحديث فإننا نستطيع أن نطبق على شعر ابن الكيزانى من أصول النقد الحديث المسائل التالية :

أولا : الصدق العاطفى ، فإن كل من يقرأ شعر ابن الكيزانى يجده يفيض بحيوية العاطفة وومض الشعور وعمق الوجدان .

ثانياً : غزارة المضمون مع البعد عن التعقيد والسلامة من الالتواء والخلو من الغموض والإبهام . وشعر ابن الكيزانى فى جملته وتفصيله مساوق لهذا الأصل تمام المساوقة .

ثالثاً : اتخاذ الشاعر لنفسه مبدأ فى الحياة يلتزمه فى جل شعره أعنى أنه لا يقف عند الجزئيات والفرديات بل ينبغى أن يتجه فى شعره إلى الكليات . ومن يقرأ شعر ابن الكيزانى يجده كله منحصراً فى اتجاهين عامين هما الوعظ والإرشاد والحب الإلهى . فما من قصيدة أو مقطوعة أو بيت عثرت عليه — من شعر ابن الكيزانى إلا وهو يشتمل على معنى من معانى الوعظ والإرشاد أو يصور حالة من حالات الحب الإلهى .

رابعاً : عمق التجربة والقدرة على سبر النفس الإنسانية ، وابن الكيزانى يتمثل — فى صدق — هذا الأصل من أصول النقد الحديث ، ومن يقرأ أشعاره فى الحب والغزل الإلهى يلمس فى وضوح مكابدة الشاعر وعمق تجربته فى حين أن أشعاره ذات الصبغة الوعظية تكشف عن قدرته على سبر أعماق النفس الإنسانية .

خامساً : طاقة الشاعر الإيحائية وقدرته على نقل أحاسيسه وانفعالاته إلى وجدانات الآخرين . وابن الكيزانى فى شعره موحٍ مشع يحرك بما أودعه فى أبياته من العواطف المتأججة مشاعر السامعين والقارئين فلا أظن أن أحداً يقرأ أو يسمع قوله :

اصرفـــوا عنى طبيبى ودعـــونى وحبيبى
عـــللوا قلـــبى بذكراه فقـــد زاد لهيـــبى
طـــاب هتـــكى فى هواه بين واش ورقيب

لا أظن أن أحداً يقرأ هذه الأبيات وأمثالها حتى تهيم نفسه وينبض قلبه وينفعل منه الوجدان بشتى معانى الحب ومختلف حالات الغرام .